وقت مستقطع

«في حياتـك يا صديقي قـد تصادف مرضى، ما من عمل على وجه البسـيطة إلا وقـد كان لهم يد فيه، وما من مجال إلا ويعرفونـه ولهـم خبرة فيه أيضًا، فـإذا التقيت بهم فلا تضيع وقتك في إثبات العكس».

لم يتبق للاختبار الأخير، إلا أيامًا قلائل. فكثرت ساعات المراجعة، وتفاقـم ضغـط الامتحـان.. انقضـت السـاعة الإضافيـة، فاخترقـت الدراجة النارية الطريق الطويل الخالي من المارة. بسرعة متوسطة يشقان طريقهـما نحو بيتهما، السـاعات والدقائق معـدودة، ولا فرصة لتضييع الوقـت. فقد اتفقا على تحصيل أعلى المعدلات لولوج كلية الطب، ومن حينها لم يَتَوَانَوْ في استغلال أي وقت للمراجعة.

فوجئا بسيارتين طائشتين تتسابقان، حاولا الهروب منهما، والتوقف عـلى جانـب الطريق، لكن بمجـرد انعطاف صغير، حصـل الاصطدام

بشكلٍ مروعٍ. قفزا من الدراجة النارية، وارتطم الرأس بالأرض، مشكلًا نافورةً لسائل قاتم ساخن، وسقط الآخر على ظهره. استأنفت السيارة المجنونة طريقها، وصوت الأغاني يشق الأسماع.

التفت لصديقه المفارق للحياة وقد تلطخ وجهه وثيابه بالدماء الحارة. رآه يلفظ أنفاسه الأخيرة، وشخصت عيناه في السماء، لاحقة بالروح.. صديقه الذي قضى أغلب سنواته معه، فمنذ لقائهما في القسم الأول ابتدائي، لم يفترقا إلا نادرًا.

تحلَّق الناس حولهما بعدما كان الشارع خاليًا، محاولين معرفة ما جرى، وتعالت الأصوات ناسجة سيناريوهات مختلفة. تركزت الأعين متفحصة المشهد الدموي، لم يجسر أحد على تقديم أي مساعدة، فالدماء غطت الأرض في منظرٍ مريعٍ. بوجهٍ أمردٍ وخدين تعلُوهما حمرة، تخلل المتحلقين بسرعة، جحظت عيناه، وأخذ الكلمة رافعًا صوته، بصوت جهوري، كمن تناول مداخلة في ندوة ما:

ـ بعد ليلة حمراء بإحدى منازل الحي الجديد، برفقة فتيات الليل، ثملا فتشاجرا بسبب إحداهن. تمكن منهما الشراب، وانطلقا بالسباب، منذ خروجهما حتى وصولهما إلى هنا. أمر الحادث كان بديهيًا، كانا يترنحان يمنة ويسرة، قنينة الخمر في يد، واليد الأخرى في المقود..

لـو رأيـت سرعتهم وهـم يخترقون الشـارع الطويـل، لصعقت في مكانك من هول المنظر، من حسن الحظ أن الشارع كان خاليًا.

قاطعه أحدهـم، بنبرة غلبت عليها لهجة البـداوة: لقد كانت سرعة جنونية.. وصمت في محاولة منه لإرجاع الكلمة للمتحدث..

طفت على وجه الأمرد ابتسامة بلهاء، واستأنف في حديثه:

ـ حينهـا علمـت أن وقوع الحادثة أمر لا مفر منـه. وما زالت الفكرة تخترقني، حتى رأيتهما يقفزان على بعد عشرة أمتار..

بصوتٍ سريعٍ، قاطعه رجل كث اللحية، ملبد الشعر:

ـ بـل أكثـر من ذلك، ما يقارب العشرين مـترًا، والدليل أن القنينة لم يبق لها أثر من قوة الاصطدام.. وصمت مقتديًا بمن سبقه.

اسـتمر في حديثه، بخد متورد، وبصوت أخفض مُبديًا سيماء الحزن على وجهه:

ـ السـيارة التـي كانـت تلحقهـما، دارت أربـع دورات في الهواء، ثم أخـذت طريقهـا بسرعة خياليـة. أراد أن يقاطعـه صاحب اللحية الكثة، فأشار له بيده، وصوت بداخله يقول:

اُصمت فلا مجال لحديثك الآن، فكل الأضواء مسلطة علي.

واستدرك حديثه:

ـ وقد يكون عدد دوراتها أكثر من ذلك.. كانت السيارة مزدحمة بالشبان والفتيات، ورائحة الخمر تفوح منهم. أما الدخان، فكانت نوافذ السيارة كمدفأة للحطب، تتصاعد منها السحابات السوداء، لقد ارتطم رأس السائق بالمقود، وهو يحاول التشبث به، لكن رغم ذلك أتم طريقه بمساعدة فتاة بجواره..

بعينين غائرتين، والدماء غمرت الأرض الصلدة، يحاول رفع يديه، كأنه يريد أن يشير بيده لشيء، وقد اختلط الواقع بعالم آخر، شخصت عيناه، وامتزجت بنظرة واهنة وغاضبة، ثم فقدَ وعيه مجددًا. لم ينتبه جمهرة المتحلقين له، فكل تركيزهما على صاحب الوجنتين الحمراويتين، وهو يروي التفاصيل بكل تحركاته، متفاعلًا أكثر بقسمات وجهه، وفي كل مرة يضيف أمرًا آخرًا نسيَه في المرة الأولى..

لقد تحدث كثيرًا كمن يتناول كلمة في ندوة، لا هدف منها غير لفت الأنظار، فلا الموضوع يجيده، ويفيد، ولا يتكلم باقتضاب من غير تشدق، ويريح..